المبحث الحادي عشر
الشَّفَاعَةُ

الله تعالى هو المالك الحقيقي لكل شيء، له المُلك والأمر، ومن ملكه سبحانه وتعالى شفاعة الشافعين، كما قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1]، وهي حقة ثابتة في القرآن والسنة، لا ينكرها إلا من خرج عن سبيل أهل الحق، فخالف الكتاب ونبذ السنة، وسلك مسلك أهل البدعة.

وسأتكلم في هذا المبحث عن مجمل معتقد أهل السنة في الشفاعة وثبوتها لأهل التوحيد، ونفيها عن أهل الشرك، ثم أعرض تقريرات الشيخ أبي محمد بديع الدين السندي رحمه الله لسلفه الصالح في ذلك.

فإن أهل السنة والجماعة موقفهم في ذلك هو ما أوقفهم عليه ربُّهم في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ ، فهم يؤمنون بأنها حق، يسعد بها المؤمن يوم القيامة، ويُحرَمُها الكافر والمشرك، وأنها فضل من الله تعالى وإحسان، وليست هي كشفاعة الشافعين في الدنيا عند الملوك، ولا تُطلب إلا من الله، فلا تُطلب من الأضرحة والقبور والأموات، ولا من الأنبياء والصالحين والأولياء ببذل ما يُبذل لهم من أنواع القُرُبات والعبادات، من الذبح والنذر، وما أشبه ذلك، فهي تنقسم إلى قسمين: شفاعة مثبتة، وشفاعة منفية، والمثبتة منها أنواع، وتفصيل ذلك وما يتبعه يتضح من خلال ما سيأتي:

الشفاعة في اللغة كما قال ابن فارس: (الشين، والفاء، والعين أصلٌ صَحيحٌ، يدلّ على مقارنة الشَّيئين، من ذلك الشَّفْع خلاف الوَتْر)[2].

---

(١) سورة الزمر: (٤٤).

(٢) معجم مقاييس اللغة: لابن فارس: كتاب الشين، باب الشين والفاء وما يثلثهما (٢٠١/٣).

وأما في الاصطلاح: فقد اختلفت عبارات المعرِّفين لها، فقيل: (هي: السؤال في التَّجاوُز عن الذنوب والجرائم)[1] وهذا التعريف يقصر عن جانب جلب الخير، ويحصر في دفع الشر.

ونقل الإمام السفاريني رحمه الله عن بعضهم أنها: (سؤال الخير للغير)[2] وهو عكس الأول؛ حيث يقصر عن جانب دفع الشر والمضرة، ويحصر في جلب الخير.

وعليه فإن كلا التعريفين فيه نقص، وكمال التعريف هو الجمع بينهما، فيقال: الشفاعة هي: التوسّط للغير بجلب منفعةٍ، أو دفع مضرّة.[3]

وقد اختلف الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: وهو قول المشركين والنصارى والمبتدعين من الغلاة في المشايخ وغيرهم: وهو أنهم يجعلون شفاعةَ من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا.

القول الثاني: وهو قول المعتزلة والخوارج: حيث أنكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره في أهل الكبائر.

القول الثالث: وهو قول أهل الحق أهلِ السنة والجماعة: وهو أنهم يقرون بشفاعة نبينا ﷺ وغيره في أهل الكبائر، ويقبلون غيرها من أنواع الشفاعة بشروطها.[4]

ولأهل السنة في إثباتهم الشفاعة أقوال كثيرة، يقول الإمام أبو بكر الإسماعيلي رحمه الله في بيانه لاعتقاد أئمة أهل الحديث: (ويقولون إن الله يخرج من النار قوماً من أهل التوحيد بشفاعة الشافعين، وإنّ الشفاعة حق)[5].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير: (٢/٤٨٥).

(٢) لوامع الأنوار البهيّة: للسفاريني: (٢/٢٠٤).

(٣) وبه عرَّفها الشيخ محمد بن صالح العُثيمين في: شرح لمعة الاعتقاد: (ص١٢٨) ؛ وفي تعليق مختصر على كتاب لمعة الاعتقاد: (ص٦٦).

(٤) انظر هذه الأقوال في: شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز: (ص٢٣٥).

(٥) اعتقاد أئمة أهل الحديث: لأبي بكر الإسماعيلي: (ص٤٦).

وهذا يدل على أن الله تعالى هو الذي يُخرجهم من النار، وإخراجه إياهم منها يدل على إذنه، لأن الله تعالى لا مُكرِهَ له.

ويقول الإمام أبو عثمان الصابوني رحمه الله: (ويؤمن أهل الدِّين والسُّنّة بشفاعة الرسول ﷺ لِمُذْنبي أهلِ التوحيد، ومُرْتكبي الكبائر، كما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ)[١].

ففيه ذكر موقف أهل السنة في إيمانهم بالشفاعة، وأنها حق ثابتة بالأدلة.

ويقول الإمام الطحاوي رحمه الله في عقيدته: (والشفاعة التي ادخرها لهم حق، كما روي في الأخبار)[٢].

وفيه إشارة إلى أن الشفاعة قسمان: شفاعة أخروية، وشفاعة دُنيوية.

وقد ذكر شارح «العقيدة الطحاوية» ابنُ أبي العِز الحنفي رحمه الله للشفاعة أنواعاً عدة، هي:

١. النوع الأول: الشفاعة الأولى، وهي العُظمى، الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين.

٢. النوع الثاني: شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة.

٣. النوع الثالث: شفاعته ﷺ في أقوام آخَرين قد أمِر بهم إلى النار أن لا يدخلوها.

٤. النوع الرابع: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم. وقد وافقت المعتزلة هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات.

٥. النوع الخامس: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

---

(١) عقيدة السلف أصحاب الحديث: للصابوني: (ص٥٨).

(٢) متن العقيدة الطحاوية: (ص٧).

٦. النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه.

٧. النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة.

٨. النوع الثامن: شفاعته في أهل الكبائر من أمته، ممن دخل النار، فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث. وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة، فخالفوا في ذلك، جهلا منهم بصحة الأحاديث، وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته، وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضاً.

فهذه هي الأنواع الثمانية للشفاعة التي ذكرها الإمام في هذا المقام، وأشار إلى أنها كلها ثابتة في الأخبار.(١)

إلى غير ذلك من أقوالهم في مسألة الشفاعة وإثباتهم لها، مع نفيهم إياها عمن نفى عنهم القرآن.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز: (ص٢٢٩-٢٣٥).

- **تقرير الشيخ بديع الدين السندي لعقيدة أهل السنة فيما يتعلق بهذا المبحث:**

الذي سار عليه الشيخ السندي رحمه الله تعالى في باب الشفاعة هو ما سار عليه أهل السنة والجماعة، فقد كان بذلك مقتفياً آثارهم، متبعاً لهم بالإحسان، و لم يخالفهم في شيء من مسائل الشفاعة، وسنعرف جهوده في تقرير عقيدة أهلِ السنة والجماعة في ما يتعلق بالشفاعة من خلال المسائل التالية:

- **المسألة الأولى: إثباتُه شفاعةَ الرسول ﷺ :**

وضح الشيخ رحمه الله تعالى أن إثبات الشفاعة للرسول ﷺ يوم القيامة من عقيدة أهل السنة والجماعة، وأنهم قد اتفقوا على إثبات ذلك، حيث يقول الشيخ: (واتفاق أهل السنة قائم على أن شفاعة رسول الله ﷺ حق)[١].

فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن نبينا محمداً ﷺ يشفع يوم القيامة، إلا أن هذه الشفاعة المباركة لا ينالها إلا الموحِّد، كما سيأتي.

- **المسألة الثانية: بيانه من يستحق شفاعة الرسول ﷺ :**

بيّن الشيخ أن شفاعة الرسول ﷺ إنما هي للموحِّد الذي أخلص جميع عباداته لرب العالمين الذي لا شريك له، وليست هذه الشفاعة للمشرِك الذي عَبَد مع الله إلهاً آخر.

يقول الشيخ رحمه الله بعد أن ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه التالي في إثبات الشفاعة، وهو أنّه قال: ﴿قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّل مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ

(١) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٧).

مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ؛ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ ﴾[1].

قال الشيخ في شرح هذا الحديث المبارك: (عُلم أن الموحِّد ينال الشفاعة كنعمة عظيمة، واتفاقُ أهلِ السنة قائمٌ على أن شفاعة رسول الله ﷺ حق، ولذلك فإنه كلما كان العَبْد قوياً في عقيدة التوحيد كُلما كان أحق بالشفاعة المباركة)[2].

فتبين أن من أهم أسباب حصول شفاعة الرسول ﷺ تحقيقَ التوحيد والابتعادَ عن الشرك، حيث اتضح من كلام الشيخ أن هذه الشفاعة يسعد بها الموحِّدون، ولا ينالها المشركون، فإنهم لا تنفعهم شفاعةُ الشافعين، من الأولياء والصالحين، ومن كان يعبدونهم ويتقربون إليهم بأنواع القرُبات في الدنيا من دون الله عز وجل، كما حكى الله سبحانه وتعالى ذلك عن المشركين ومعبوداتهم الباطلة في قرآنه المجيد، حيث يقول: ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾[3].

قال الشيخ في شرح هذه الآيات الكريمات: (يختصِمُ المشرك وما كان يَعبد فيما بينهم؛ فيقول العابدون: إنْ كنا لفي ضلال مبين، إذ سوّيناكم برب العالمين، وما أضلّنا إلا المجرمون أمثالُكم، فما لنا الآن من شافع ولا ناصر.. فَلْيَتّعِظ المشركون من هذه الآية الكريمة، ويُدركوا كونهم على الضلالة في هذه الدنيا، ويُصلحوا عقيدتهم بمجالسة الموحِّدين، وإلا فلا تنفعهم الحسرة ولا الندامة يوم القيامة)[4].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب العلم: باب الحرص على الحديث: (١/٣١ برقم ٩٩).

(٢) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٧)، وانظر منه: (ص٥٥).

(٣) سورة الشعراء: (٩٦-١٠١).

(٤) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٦٣).

فتبين أن الله سبحانه وتعالى إنما جعل الشفاعة للموحِّد المخلِص، وأما المشرِك فلا شفيعَ له، وليس له إلا الندم والحسرة، ولا ينفعه مَن كان يعتقد فيه أنه مُنجيهِ يوم القيامة من عذاب الله تعالى وأنه سيُدخله الجنة، بل يقع في عذاب الله تعالى ومَقْته وسَخَطه، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢ ﴾[1] فلا يكون شيء إلا بحكمه تعالى ومشيئته وإذنه.

وهذا ما يقوله الشيخ السندي رحمه الله في شرحه لهذه الآيات البينات: (المشرِك ظَلَّام، يقع بسبب ظُلمه هذا في العذاب الشديد يوم القيامة، ولا ينفعه أحد ممن كان يعبده، ولا تنفعه المزارات التي كان يتردد إليها، فحينئذٍ يتأسف على حاله ويمقت نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾[2] فيُنادي منادٍ عن الله تعالى: أنكم مهما مَقَتُّم أنفسَكم فإنّ مَقْتَ الله أكبر من مقتِكم أنفسَكم، وذلكم بأنه إذا دُعيتم إلى التوحيد كفَرْتُم، وإذا دُعِي الله وحدَه غضبتم، ورفضتم قبولَ دِينٍ ليس فيه إلا التوحيد، ولا توجد فيه شائبة الشرك، ولم تقبلوا إلا دينَ الشرك، فالتمِسوا الآن أولياءَكم، لِيقضوا لكم حوائجكم، ولكن هيهات هيهات.. بل ليس لهم من الأمر شيء، ولله تعالى الحُكم والمشيئة)[3].

فاتضح أنه ينبغي للعباد أن لا يرجوا النفع والشفاعة من غير مالكها اللهِ تعالى، ولا يُشرِكوا معه أحداً رجاءَ شفاعته، بل عليهم أن يُخلِصوا العبادات لله رب العالمين، لِيَفوزوا في دار كرامته بنيل شفاعة الشافعين، لأن الأمر بيد الله تعالى، ولا شفاعة عنده إلا بإذنه ورضاه.

---

(١) سورة غافر: (١٠-١٢).

(٢) سورة الفرقان: (٢٧).

(٣) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٧٥-٧٦).

- **المسألة الثالثة: بيانه لبعض الطُرُق الخاطئة عند الناس لنيل الشفاعة:**

لما ذكر الشيخ رحمه الله أن توحيد الله عز وجل وإخلاص العبادة له سبحانه أعظم ما تنال به الشفاعة يوم القيامة أشار مع ذلك إلى أمور يظنها بعض الجهلة من أسباب نيل الشفاعة، وهي في واقع الأمر أمور بدعية خرافية أو شركية، وليست هي مما ينال بها الشفاعة.

يقول الشيخ في بيان بعض هذه الأمور: (الطرق المختلفة التي تُختار لحصول الشفاعة، مثلاً:

- إقامة محفل الميلاد.
- وتقبيل الإبهام عند قول المؤذِّن: أشهد أن محمداً رسول الله.[1]
- وإنشاد الأناشيد المملوءة بالغلو والشركيات.

كل هذه الأمور ليست بنافعة قطعاً، بل لا سبيل إليها إلا توحيد الله تعالى، رَزَق الله تعالى الجميع نعمة التوحيد)[2].

فالشفاعة تُنال بالأسباب الشرعية بعد فضل الله سبحانه، وأما الطرق البدعية الخرافية فليست مما ينال بها الشفاعة.

وخلاصة ما تقدَّم من تقرير الشيخ السندي رحمه الله لعقيدة أهل السنة في مسألة الشفاعة، أنها من الأمور الثابتة عندهم، وقد ذكر منها شفاعة رسول الله ﷺ يوم القيامة، وأنها تكون للمؤمن الموحِّد الذي لا يُشرك بالله شيئاً، دون المشرك، فإن الشرك من الموانع للشفاعة، كما أن من موانعها ارتكاب البدع والغلو، فلا تنال الشفاعة بذلك، وإنما تنال بالأسباب الشرعية التي أهمها التوحيد والاتباع.

---

(١) تقبيل الإبهامين عند سماع شهادة المؤذن ثم مسحهما على العيون أمر رائج في بلاد الهند والسند عند الفرقة البريلوية إلى يومنا هذا، ويعتبرونه احتراماً للنبي ﷺ ، وهو من الغلو الواضح فيه.

(٢) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٧).

والشيخ حيث جعل أصله في هذا الباب هو التمسك بالكتاب والسنة، ولزوم طريقِ أهل السنة والجماعة، المبنيةِ على منهج الصحابة والتابعين، وما مضى عليه الأسلاف من الصالحين، كان على الحق متبعاً، مجانباً سُبلَ المفترقين المبتدِعين.

المبحث الثاني عشر
مَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّوَسُّل

قد أكثرَ بعضُ الناس المنتسبين للإسلام من الشرك بالله عز وجل بدعاء غير الله تعالى من الأنبياء والأولياء والصالحين، الأحياء الغائبين منهم أو الميتين، أو بصرفهم أنواعاً من العبادات لغير الله تعالى، وسَتَرُوا شركهم هذا بِستار "التوسل"، وقالوا: ليس دعاؤنا منهم إلا توسلاً بهم إلى الله عز وجل، لا أنَّا نعبدهم أو نعتقد فيهم من صفات الربوبية أو الألوهية شيئاً.

ولما كانت هذه الشبهة وأمثالها من الشبه لها ضرر عظيم على الناس السذج، بل وعلى بعض من ينتسب للعلم وأهله، ولها عاقبة وخيمة؛ لما كان الأمر كذلك عقدتُ هذا المبحث لتتبين من خلال ما سيأتي فيه من كلام السلف وتقرير الشيخ السندي رحمهم الله حقيقة ذلك، وتنجلي حقيقة التوسل والوسيلة التي أمرنا الله سبحانه بها في قرآنه المجيد، حيث قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]، كما سيأتي تفصيل ذلك.

وسأبدأ هذا المبحث بذكر مجمل معتقد أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بالتوسل، ثم أردف ذلك بما قرره الشيخ السندي رحمه الله تجاه هذا المعتقد.

فأما التوسل عند أهل السنة والجماعة فهو من الأمور التي يتعبدون بها، ويتوقفون فيه عند حدِّه الشرعي، ولا يتجاوزون ذلك، فيثبتون ما أثبته الله تعالى في كتابه من أنواعه، أو على لسان نبيه ﷺ ، ويمنعون ما سوى ذلك، ويعتبرونه من التوسل الممنوع، وسيتضح تفصيل ذلك فيما يلي:

---

(١) سورة المائدة: (٣٥).

إن كثيراً من الاضطراب الحاصل بين المسلمين في التوسل سببه هو عدم الوقوف على المعنى الحقيقي له، وعدم فهمه في اللغة والقرآن، فإن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وما لا يُتصور على حقيقته يقع الاضطراب فيه، فقد يطلقه بعض الناس على الاستغاثة بغير الله، ودعائه ورجائه، والاستعانة به وطلب العون والمدد منه، وما أشبه ذلك من صرف أنواع العبادات لغير الله تعالى، فيقلبون بذلك الحقائق، ولذا فإني سأعرض هنا معناه اللغوي عند العرب، وكذلك معناه المراد في القرآن.

فالتوسل لغةً: له عدة معانٍ:

أ- التقرب إلى الشيء بشيء: بعمل، أو كتاب، أو قرابة، أو سبب آخر. أي: هو التقرب إلى شيء بوسيلةٍ أيا كانت. ووسَلَ فلان إلى ربه وسيلةً، وتَوَسَّل إليه بوسيلة، أي: تقرَّب إليه بعمل، ووَسَّلَ إلى الله تعالى توسيلاً: عَمِل عملاً تَقرَّب به إليه.

ب- الشفاعة: يقال: شفعت: إذا كنت متوسلاً له.

ت- السرقة: يقال: أخذ فلان إبل فلان توسلاً: أي سرقه خفية.

والوسيلة والواسِلة: المنزِلة عند الملِك، والدَّرجة، والقُرْبة، والوسيلة: الوُصْلة والقُرْبى.[1]

وأما التوسل في القرآن: فقد وردت لفظة الوسيلة في القرآن الكريم في موطِنَين، هما: قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[2]، وقوله جل شأنه: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾[3].

(١) انظر: المعجم الوسيط: لمجموعة المؤلفين: باب الواو (ص١٠٣٢) ؛ وكتاب العين: للخليل الفراهيدي: (٤/٣٧٠-٣٧١).

(٢) سورة المائدة: (٣٥).

(٣) سورة الإسراء: (٥٧).

ومعنى التوسل أو الوسيلة في كلا الموضعين هو: القُربة، أي: القُربة إلى الله بالعمل بما يُرضيه؛ فأما الآية الأولى فقد نقل المفسرون عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري والسّدّي وغيرهم من السلف رحمهم الله تعالى أنَّ معنى الوسيلة فيها: القُربة.(١) ومعنى الآية: واطلبوا القُرْبةَ إليه بالعمل بما يرضيه.(٢)

وأما الآية الثانية: فيتبين معنى الوسيلة فيها بمعرفة سبب نزول الآية، يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: ((نزلتْ في نَفَرٍ من العَرب كانوا يعبدون نفراً مِن الجِن، فأسلم الجِنّيُّون، والإنسُ الذين كانوا يعبدونهم لا يَشعرون))(٣).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (أي: استمَرَّ الإنس الذين كانوا يعبدون الجنَّ على عبادة الجن، والجِنُّ لا يَرضَون بذلك، لكونهم أسلموا، وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة ... وهذا هو المعتمد في تفسير الآية)(٤).

وهذا صريحٌ في أن المراد بالوسيلة في الآية المذكورة: ما يتقرب به إلى الله تعالى، ــ ولذلك قال: ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أيْ: يطلبون ما يتقربون به إلى الله من الأعمال الصالحة ويبتغون به مرضاته.(٥)

فتلخص من ذلك أن التوسل في القرآن في هاتين الآيتين التقرب إلى الله بما يرضيه من الأعمال الصالحة والعبادات، وهو النوع الأول من التوسل، وهو توسل المتوسِّلِ بعمله الصالح؛ كأن يقول: اللهم إني أتوسَّل إليك بإيماني بك، واتباعي ومحبتي لنبيك محمد ﷺ أن

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير: (١٠٣/٣).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للطبري: (٤٠٣/٨).

(٣) رواه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، تفسير سورة الإسراء (٨٥/٦ برقم٤٧١٤).

(٤) فتح الباري: لابن حجر العسقلاني: (٣٩٧/٨).

(٥) انظر: التوسل أنواعه وأحكامه: للألباني: (ص١٤).

تُدخلني الجنة. فهذا توسل مشروع؛ لأنه توسل المتوسِّل بعمله الصالح الذي عَمله ابتغاء وجه الله.

النوع الثاني: التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، أو بصفاته العليا؛ ومثال ذلك: أن يقول العبد في دعائه: اللهم إني أسألك بأنك أنت الغفور الرحيم أن تغفر لي وترحمني. فيطلب مغفرته متوسلا إليه باسمه ''الغفور'' وبمغفرته، ويطلب رحمته متوسلاً إليه باسمه ''الرحيم'' وبرحمته، وهكذا في سائر حاجاته، يتوسل إليه بما ناسب المقام من أسمائه وصفاته، وقد تقدم في المبحث الأول من هذا الباب أن من القواعد في باب الأسماء الحسنى أن أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف، فالتوسل بها توسل بأسمائه وصفاته.

النوع الثالث: التوسل إلى الله بدعاء رجل صالح؛ وهو أن يطلب من رجل يعتقد فيه الصلاح والتقوى، أو الفضل والعلم أن يدعو له ربه بكشف ما مسه والناسَ من ضُر.(١)

ويُلاحَظ في هذه الأنواع الثلاثة للتوسل أنه ليس فيها من التوسل بالذوات والجاهات، وغيرها من التوسلات البدعية أو الشركية.

ومن أمثلة التوسل الممنوع: دعاء الولي، أو الاستغاثة بميت، فإن هذا من الشرك الأكبر بالله عز وجل، فهو مما اختل فيه شرط الإخلاص، يقول الآلوسي رحمه الله: (إن الناس قد أكثروا من دعاء غير الله تعالى من الأولياء، الأحياء منهم والأموات، وغيرهم، مثل: ياسيدي فلان! أغِثْني؛ وليس ذلك من التوسُّل المباح في شيء، واللائق بحال المؤمن عدم التفوّه بذلك، وأن لايحوم حول حماه، وقد عدَّه أناسٌ من العلماء شِركاً، وإنْ لا يَكُنْهُ فهو قريبٌ منه ... ولايَغُرَّنَّك أن المستغيث بمخلوقٍ قد تُقضى حاجته، وتنجح طلبته، فإن ذلك ابتلاء وفتنة منه عز وجل، وقد يتمثل الشيطان للمستغيث في صورة

---

(١) انظر هذه الأنواع الثلاثة للتوسل مع أدلتها وأقوال العلماء فيها في: التوسل أنواعه وأحكامه: للألباني: (ص٢٩) ؛ ودعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: لعبد العزيز بن محمد: (ص٢٥٦).

الذي استغاث به، فيظن أنَّ ذلك كرامة لمن استغاث به، هيهات هيهات، إنما هو شيطانٌ أضلَّه وأغواه، وزَيَّنَ له هواه، وذلك كما يتكلم الشيطان في الأصنام لِيُضلَّ عبدَتَها الطغام)[1].

إلى غير ذلك من أمثلة التوسلات الممنوعة شرعاً؛ لكونها من التوسلات البدعية التي لم يأت ثبوتها في القرآن ولا في السنة، أو التي فيها من الشرك مع الله عز وجل.

فتبين مما سبق أن التوسل إلى الله تعالى من الأمور المشروعة، ولذلك يجب أن يكون وفق ما شرعه الله سبحانه وتعالى، ويتوفر فيه الإخلاص، وهو أنواع ثلاثة، وما لا يكون من التوسل منها فإنه ممنوع عنه شرعاً.

وهذه القسمة الثنائية مبنية على معتقد أهل السنة والجماعة في سائر العبادات، وهو أصلهم العظيم في كافة المعتقدات، ألا وهو: التوقيف في الأمور الاعتقادية والعبادات على الكتاب والسنة، فما ثبت من التوسل في الكتاب والسنة فهو المشروع الذي يُتعبد به ويُتعقد به، وما لم يثبت فهو الممنوع الذي يحرُم التعبد به ولا يُعتقد بمشروعيته.

---

(١) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين: للآلوسي: (ص٤٨٩).

- **تقرير الشيخ بديع الدين السندي لعقيدة أهل السنة فيما يتعلق بهذا المبحث:**

اهتم الشيخ السندي رحمه الله بموضوع التوسل اهتماماً بالغاً، وتكلم عنه في كثير من مصنفاته، وأعطاه في بحوثه الأولوية على كثير من المسائل العقدية، وذلك لأن التوسل لكونه من الألفاظ المشتركة بين التوسل الشرعي وبين التوسل الشركي صار من أعظم شُبَه المشركين، وضل فيه كثير من الناس قديماً وحديثاً، وقد أضلوا به كثيراً من المسلمين.

ولإدراك الشيخ لخطره العظيم، وأثره الوخيم بيَّن رحمه الله تفاصيله، فبين للناس التوسل الشرعي الصحيح، وحذَّرهم عن التوسل الممنوع المبتدَع، وبَيَّن حقيقته ومخالفته للشرع، وقد خصص الجزء الثاني من كتابه «التوحيد الخالص» لتقرير هذه المسألة.

وسأتكلم فيما يلي من الأسطر عن تقريراته العلمية وجهوده في تقرير عقيدة أهل السنة في ذلك، وذلك من خلال المسائل التالية:

- **المسألة الأولى: بيانه أن التوسل قسمان:**

بيَّن الشيخ السندي رحمه الله أن التوسل قسمان: توسل مشروع، وتوسل ممنوع، وأن التوسل الصحيح هو المقبول في جناب الله تعالى دون التوسل الممنوع.

يقول رحمه الله في وصف الله تعالى في الكلمات الاستهلالية لكتابه «التوحيد الخالص»: (يُعطي مَن سأل، يَغفِر لمن استغفر، يُجيب لِمَن تضرع لديه ودعا ... وبالعمل الصالح توسَّلَ إليه، وبكل ما يتقرَّب به لديه، من أفعال الخير والتقوى، دون توسل بذوات أحد من الأعلى والأدنى)[1].

---

(١) خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص١ مخطوط).

فقد بَيَّن الشيخ السندي في هذه الجملة عدداً من آداب دعاء الله تعالى وسؤاله، ومن ذلك أن يسأل العبد ربه في دعائه متوسِّلاً إليه، وأن هذه الوسيلة التي يتوسل بها إلى ربه هي عمله الصالح، فهو بذلك يشير إلى التوسل الصحيح.

كما أشار إلى التوسل الممنوع، وذلك بقوله فيها: (دون توسل بذوات أحد من الأعلى والأدنى) أي: يتوسل إلى الله بالعمل الصالح، ولا يتوسل إليه بالذوات والأشخاص، سواء كان هذا الشخص أعلى منزلة وأرفع درجة منه، أو كان أدنى منه وأقل في المنزلة والدرجة، فإن هذا من التوسل الممنوع عند الشيخ.

وبهذا التقسيم يتضح أن التوسل عند الشيخ -كما تقرر أيضاً عند أهل السنة- قسمان: توسل مشروع، وتوسل ممنوع، وقد ذكر في هذا المقام من التوسل المشروع التوسلَ بالعمل الصالح والتقوى، ومن التوسل الممنوع التوسلَ بالذوات، وإن كانت لديه أخرى من أنواع التوسل، كما سيأتي تقرير ذلك.

- **المسألة الثانية: بيانه التوسل الشرعي:**

سُئل الشيخ السندي رحمه الله تعالى في سؤالٍ وَرَدَ إليه مِن بعض الناس، سأله فيه السائل عن صحة قول طبقة من العلماء: (أنه لا أحدَ في الكون يسمع دعاء الخلق كلهم ونداءهم من غير واسطة، ولا يفرج كُربهم وهمومهم، ولا يداوي ما أصابهم إلا الله تعالى؛ ولذلك هو الذي ينبغي أن يُدعى وحده دون ما سواه مع صادق القلب، والاعتماد عليه).

ثم ذكر السائل أقوالاً أخرى لبعض العلماء في طريقة الدعاء تتضمن بعضاً من أنواع التوسل الممنوع، وسيأتي ذكرها فيما بعد، لكني سأذكر في هذا الموضع جواب الشيخ السندي عن تصحيحه للقول المذكور عن العلماء في دعاء الله تعالى من غير واسطة الشفعاء والوسطاء.

يقول رحمه الله: (الجواب وبالله التوفيق: أن الطريقة الصحيحة للدعاء هو الأول، وبقية الطرق فاسدة باطلة نقلاً وعقلاً؛ لأن جميع الأنبياء عليهم السلام الذين بُعثوا من الله تعالى في الدنيا هكذا كانت أدعيتهم، وهكذا علَّمونا)[1].

وتصحيح الشيخ لهذا القول يعني أن التوسل الشرعي عنده شرطُه الأول أن يكون خالياً من دعاء غير الله، وأن يكون الدعاء موجهاً إليه دون من سواه من المخلوق.

ثم ذكر الشيخ أمثلة من دعاء الملئكة والأنبياء والصالحين المذكورة في القرآن، كلها على هذه الطريقة، أذكر بعضاً منها فيما يلي على سبيل المثال:

فذكر من أدعية الملئكة أنهم: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾[2]، وقال الله تعالى عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ ﴾[3].

ثم قال الشيخ السندي تعليقاً على هذه الأدعية الواردة عن الملئكة: (ولم يدعو بوسيلة أحد ولا واسطته، مع أن الملئكة فيهم درجات)[4].

أي: مع أن الملئكة فيهم من هو أفضل منهم من جنسهم، لكنهم مع ذلك لم يتوسلوا بأولئك الفضلاء، وما ذلك إلا لأنهم يدعون الله من غير واسطة أحد.

وذكر الشيخ كذلك من أدعية الأنبياء عليهم السلام، وقد بلغت بمجموعها اثنين وخمسين دعاءً، اثنان وأربعون منها من أدعية عامة الرسل غير رسولنا، وعشر منها من

---

(١) خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص١٧٩ مخطوط).

(٢) سورة البقرة: (٣٢).

(٣) سورة غافر: (٧-٨).

(٤) خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص١٧٩ مخطوط).

أدعية رسولنا ونبيِّنا محمد صلى الله عليه وعليهم وسَلَّم، وسَأُورِد منها فيما يلي بعض الأدعية:

فمن دعاء رسولنا ﷺ ما أمره الله تعالى بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ ﴾[١].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[٢].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾[٣] وغير ذلك.

يقول الشيخ بعد إيراده لأدعية رسولنا محمّدٍ ﷺ : (علَّمَ الله تعالى هذه الأدعية للنبي الكريم ﷺ ، مما يتضح منه بلا خفاء أن المشروع إنما هو دعاء الله تعالى وحده، وفيه درسٌ لنا أن الدعاء بوسيلة شخص أو واسطته ليس من الأدعية الشرعية، ولو كان كذلك لَعَلَّم الله تعالى ذلك)[٤].

وهذا فيه أيضاً أن التوسل بالذوات والشخصيات من التوسل الممنوع الذي لا يجوز اتخاذه، لأنه ليس مما دلت عليه النصوص، ففيه حرمة التوسل بالذوات، كما أنه يدل على الأصل الذي اعتمده الشيخ في إثبات التوسل، وهو التوقيف، أي: أنه اعتبر وروده في الوحي، فما ثبت منه في الكتاب والسنة قال به، وما لا يكون كذلك من التوسل فإنه

---

(١) سورة آل عمران: (٢٦-٢٧).

(٢) سورة المؤمنون: (٩٣-٩٤).

(٣) سورة المؤمنون: (٩٧-٩٨).

(٤) خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص١٨٣ مخطوط).

يمنعه، وهذا هو الأصل الذي بنى عليه أهل السنة معتقدهم في باب التوسل، كما سبق بيانه.

ومن دعاء آدم وحواء عليهما السلام قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

ومن دعاء نوح عليه السلام: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[2].

وذكر كذلك من أدعية غيرهم من الأنبياء عليهم السلام، حيث بلغ عددهم ستة عشر رسولاً ونبياً، كلهم دعوا الله تعالى مباشرة من غير واسطة.

وأشار الشيخ في هذا المقام أنَّ من الأنبياء من لم يُقصَص علينا ذكرهم في القرآن، كما قال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[3] ..[4] ويقصد بذلك أن هؤلاء الأنبياء علمنا من أدعيتهم ما ليس فيها توسط بواسطة الذوات، فكذلك تكون أدعية غيرهم من الأنبياء الذين لم يُقصص علينا قصصهم في القرآن، إذ الأنبياء ملة واحدة، وبذلك يكون إجماع الرسل على هذا الأمر، وهو دعاء الله تعالى من غير واسطة، وعدم الشرك معه سبحانه في السؤال والطلب منه.

وكذلك ذكر الشيخ من أدعية عامة الصالحين، أقتطف منها بعضها على سبيل المثال:[5]

---

(١) سورة الأعراف: (٢٣).

(٢) سورة هود: (٤٥).

(٣) سورة غافر: (٧٨).

(٤) خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص١٧٩ مخطوط).

(٥) انظر: المصدر نفسه: (ص١٨٣ مخطوط).

فمن ذلك: دعاء أهل الكهف، حيث قال الله تعالى فيهم: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾[1].

ثم قال الشيخ في وصف هؤلاء الفِتْية: (هي تلك الجماعة التي مدحها الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾[2] ولم يدعوا إلا كما علمهم الإسلام، ودعا به الأنبياء عليهم السلام)[3].

ومنها دعاء ذوي الألباب وأهل الإيمان، قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾[4].

ومنها دعاء أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ﴾[5].

و: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾[6].

---

(١) سورة الكهف: (١٠).

(٢) سورة الكهف: (١٣-١٤).

(٣) انظر: خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٨٦ مخطوط).

(٤) سورة آل عمران: (١٩١-١٩٤).

(٥) سورة الأعراف: (٤٣).

(٦) سورة يونس: (١٠).

إلى غير ذلك من أدعية الصالحين في الدنيا والأخرى، والتي أورَدها الشيخ في هذا المقام، وكلها من أعظم الأدلة على ما أوردها له في تصحيحه لقول العلماء: أن الأدعية لا بد أن تكون خالية من الشرك بالله عز وجل، بإخلاص الدعاء له من غير واسطة الوسطاء والشفعاء، وأن من شرط التوسل الشرعي الصحيح خلوه من التوسل بالذوات والأشخاص.

فتبين من ذلك أن التوسل المشروع أول ما ينبغي فيه أن يكون دعاء العبد لا شرك فيه ولا توسط بالشفعاء.

وقد صحح الشيخ في شتات من كلامه في مواضع متفرقة ثلاثة من أنواع التوسل، هي:

النوع الأول: التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته:

وقد تقدمت كثير من الأمثلة وأدلتها فيما سبق من تقرير الشيخ وذكره لأدعية الأنبياء والملئكة والصالحين، والتي تحوي على التوسل بالأسماء الحسنى والصفات العليا.

يقول الشيخ السندي رحمه الله تعالى في وجه الاستدلال من أدعية أولئك الخِيَرة بعد إيرادها: (هؤلاء كلهم دعوا الله، فمنهم مَن استغفره، ومنهم من طلب حاجته، ومنهم من دعاه بطلب الشفاء، ومنهم مَن مسه الضر فدعاه بكشف الكرباء، ومنهم من استفتحه على الأعداء، ومنهم من سأله أن يكون ختامه على الإسلام والإيمان، ومنهم من طلب التوفيق للعمل الصالح والشكرَ على النعماء، ومنهم من دعا لأبويه أو لأولاده، ومنهم من استعاذه مِن الفِتن، ومنهم من استعاذه من الشرك والكفر، ومنهم من استرزقه، ومنهم من سأله الجنة، ومنهم من طلب الحسنة في الدنيا والآخرة، المقصود أنهم سألوه كلَّ شيء، ولكن كل واحد منهم إنما سأل مولاه الرحيم -وحده لا شريك له- ودعاه، ولم يدعوا أحداً غيره، لا حيًّا ولا ميتاً، ولم يتوسطوا بمَلك ولا نبي، وأما الذي ذكروه إنما هو رحمة الله عز وجل؛

كقولهم: ﴿ ... وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩ ﴾[1]، و﴿ ... وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ ﴾[2]، و﴿ ... وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ ﴾[3]، و﴿ ... أَنتَ وَلِيُّنَا ... ﴾[4]، و﴿ ... وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩ ﴾[5]، فهذا هو الدعاء المسنون والمرغوب والمحبوب عند الله ...)[6].

أي: أن التوسل المشروع هو أن يُتوسل إلى الله تعالى بذكر أوصافه الحميدة كما في الأمثلة المذكورة آنفاً، إضافة إلى الأدعية القرآنية التي سبقت أمثلتها قريباً قبل ذلك، دون غيره من التوسل بذوات الأولياء والصالحين.

النوع الثاني: التوسل بالعمل الصالح:

من أنواع التوسل التي أثبتها الشيخ السندي وبَيَّن أنها مشروعة دون غيرها التوسلُ بالأعمال الصالحة؛ يقول الشيخ رحمه الله مجيباً عن استدلال المخالفين برواية ذكروها محتجين بها على التوسل بذوات الأولياء، وفيها: ﴿اللهُمَّ إِنِّيْ أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِيْنَ عَلَيْكَ، وَأَسْأَلُكَ بحقِّ مَمْشَايَ هَذا إِلَيْكَ﴾[7].

---

(١) سورة المؤمنون: (٢٩).

(٢) سورة الأنبياء: (٨٩).

(٣) سورة الأنبياء: (٨٣).

(٤) سورة الأعراف: (١٥٥).

(٥) سورة الأعراف: (٨٩).

(٦) انظر: خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص١٨١-١٨٢ مخطوط).

(٧) رواها أحمد في المسند: (١٧/٢٤٧ برقم١١١٥٦) ؛ وقال محققه شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف. وقال الشيخ بديع الدين السندي: (هذه الرواية ليست بصحيحة؛ أخرجها أحمد وابن ماجه من طريق عطية بن سعيد العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وعطية راو مشهور بضعفه، قال ابن تيمية في الوسيلة: وهو ضعيف بإجماع أهل العلم، وقال في الميزان: ضعيف، وحكى تضعيفه عن=

يقول الشيخ: (الجواب: أن هذه الرواية ليست بصحيحة) فبين سبب ضعفها، ثم قال: (وأيضاً: إنما المراد بها هو ذلك الحق؛ كما قال ابن تيمية في «الوسيلة»: "ولفظه لا حجة فيه؛ فإنّ حقَّ السائلين عليه أنْ يجيبَهم، وحق العابدين أنْ يُثيبَهم، وهو حقٌّ أحَقَّه الله تعالى على نفسه الكريمة بوعده الصادق باتفاق أهل العلم، وبإيجابه على نفسه في أحد أقوالهم، وقد تقدم بسط الكلام على ذلك. وهذا بمنزلة الثلاثة الذين سألوه في الغار بأعمالهم: فإنه سأله هذا ببره العظيم لِوالدَيه؛ وسأله هذا بعفته العظيمة عن الفاحشة؛ وسأله هذا بأدائه العظيم للأمانة؛ لأن هذه الأعمال أمر الله بها ووعد الجزاء لأصحابها، فصار هذا كما حكاه عن المؤمنين بقوله: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ ﴾[1]"[2]..)[3].

فتبين من ذلك أن من أنواع التوسُّلِ المشروعِ التوسُّلُ إلى الله عز وجل بالأعمال الصالحة، كما أشار إليه الشيخ السندي في الكلام المذكور، في سياق الرد على القائلين بالتوسل بالأولياء والصالحين، وأيده بكلام شيخ الإسلام، حيث أشار فيه إلى حديث الثلاثة الذين آوتهم الغار، وهو ما سيأتي في قول الشيخ السندي حيث قال:

(بل وقد ثبت بالنقل الصحيح المعتبر أنَّ العَبد لو توسل في دعائه اللهَ بالعمل الصالح لاستجيبت دعوته؛ فقد أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: ﴿بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَمْشُونَ إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ، فَانْطَبَقَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِنَّهُ وَاللَّهِ يَا هَؤُلَاءِ لَا يُنْجِيكُمْ إِلَّا الصِّدْقُ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ؛ فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي

=أبي حاتم وأحمد والنسائي وجماعة). خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٢١٢ مخطوط) ؛ وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٨٨/١).

(١) سورة آل عمران: (١٩٣).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٢٨٨/١).

(٣) خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٢١٢-٢١٣ مخطوط).

أَجيرٌ عَمِلَ لِي عَلَى فَرَقٍ[1] مِنْ أَرُزٍّ، فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ، وَأَنِّي عَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ، فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِّي اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَرًا، وَأَنَّهُ أَتَانِي يَطْلُبُ أَجْرَهُ، فَقُلْتُ لَهُ اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ فَسُقْهَا، فَقَالَ لِي إِنَّمَا لِي عِنْدَكَ فَرَقٌ مِنْ أَرُزٍّ! فَقُلْتُ لَهُ: اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الْفَرَقِ فَسَاقَهَا؛ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا، فَانْسَاحَتْ عَنْهُمْ الصَّخْرَةُ؛

فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ فَكُنْتُ آتِيهِمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بِلَبَنِ غَنَمٍ لِي، فَأَبْطَأْتُ عَلَيْهِمَا لَيْلَةً، فَجِئْتُ وَقَدْ رَقَدَا وَأَهْلِي وَعِيَالِي يَتَضَاغَوْنَ[2] مِنْ الْجُوعِ، فَكُنْتُ لَا أَسْقِيهِمْ حَتَّى يَشْرَبَ أَبَوَايَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَكَرِهْتُ أَنْ أَدَعَهُمَا فَيَسْتَكِنَّا لِشَرْبَتِهِمَا، فَلَمْ أَزَلْ أَنْتَظِرُ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا فَانْسَاحَتْ عَنْهُمْ الصَّخْرَةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ؛ فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي ابْنَةُ عَمٍّ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَأَنِّي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَأَبَتْ إِلَّا أَنْ آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَطَلَبْتُهَا حَتَّى قَدَرْتُ فَأَتَيْتُهَا بِهَا، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا، فَأَمْكَنَتْنِي مِنْ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا فَقَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ! وَلَا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ[3]، فَقُمْتُ وَتَرَكْتُ الْمِائَةَ دِينَارٍ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا؛ فَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَخَرَجُوا﴾[4]...)[5].

---

(١) الفَرَق: هو إناء قدر ثلاثة آصع. إكمال المعلِم: للقاضي عياض: (٢٣٧/٨).

(٢) يتضاغون: يريد يصيحون ويستغيثون من الجوع، والضُّغَاء مضموم ممدود: صوت الزلة والاستخذال. إكمال المعلِم: للقاضي عياض: (٢٣٦/٨).

(٣) كناية عن عذرتها؛ أي: لا يستبيح افتضاضها إلا بما يحل من النكاح. إكمال المعلِم: للقاضي عياض: (٢٣٧/٨).

(٤) روا البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار: (١٧٢/٤ برقم٣٤٦٥).

(٥) خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص١١٥، وانظر ما بعده مخطوط).

فدل هذا الحديث الذي استدل به الشيخ على مشروعية التوسل بالأعمال الصالحة للعبد.

النوع الثالث: التوسل بدعاء رجل صالح حي:

من أنواع التوسل المشروع الذي قرر الشيخ مشروعيته وفقاً لسفه الصالح التوسل إلى الله بدعاء رجل صالح، شريطة أن يكون مَن يُطلب منه الدعاء حياً من الأحياء في الحياة الدنيا؛ أما طلب الدعاء من الميت فإنه لا يجوز.

ويبين الشيخ السندي هذا التفصيل بقوله حيث يقول: (فيه تفصيل: وهو أنه لو كان المطلوب منه الدعاء حياً جاز ذلك؛ كما في القرآن: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾[1]، و: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾[2]، و: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾[3]، و: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾[4].

وكذلك في الأحاديث قصص كثيرة فيها أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون منه أن يدعو لهم، فيدعو ﷺ لهم، لا سيما قصة الاستسقاء التي في صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه طولب بالدعاء يوم الجمعة وهو على المنبر، فدعا لهم، فسُقوا المطر[5])[6].

---

(١) سورة البقرة: (٦١).

(٢) سورة البقرة: (٦٨).

(٣) سورة الأعراف: (١٣٤).

(٤) سورة الزخرف: (٤٩).

(٥) حديث الاستسقاء الذي أشار إليه الشيخ في هذا الموضع رواه البخاري في صحيحه: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة: (٢٨/٢ برقم١٠١٤).

(٦) خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٢٤٣ مخطوط).

فدلت الآيات القرآنية مع حديث الاستسقاء أنه يجوز طلب الدعاء من الحي في الدنيا، وقد ذكر الشيخ لجواز ذلك شروطاً ثلاثة، وهي:

- الأول: أن لا يعتقد أن الله لا يسمعني؛ فإن هذا اليأس كفر؛ ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾[1].
- الثاني: أن لا يعتقد أنه لا يجوز طلب الدعاء إلا من الأفضل منه، بل يجوز أن يطلب من الأفضل ومن المفضول سواء بسواء.
- الثالث: وأن يدعو كذلك بنفسه، لا أن يدَعَ الدعاء بنفسه ويطلبه من الآخرين، لأن هذا يؤدي إلى اليأس من روح الله، وهو كفر وضلال.

ثم قال الشيخ بعد إيراده للشروط الثلاثة: (فيجوز وفقاً لهذه الشروط أن نطلب من غيرنا أن يدعو لنا، لكنه لا يجوز أن نطلبه ميتاً، لأنه أولاً: ليس من تعاليم القرآن، ولم يرِد به حديث، ولا نجده مما كان عليه عمل السلف الصالحين، فإنه يلزم من ذلك الابتداع والإحداث في الدين.

ثانياً: هذا يضاد ما أُمِرنا به في الشريعة؛ لأن الشرع إنما أمرَنا أن ندعو للأموات، لا أن نطلب منهم الدعاء)[2].

ثم استرسل الشيخ في ذكر أوجه أخرى في رد هذه المسألة، بلغت عشرةً كاملة.

وقد تقدم مما سبق من توضيح الشيخ السندي وتقريره أن التوسل المشروع هو التوسل الوارد في نصوص الوحي، دون غيره من التوسلات البدعية والشركية، وهو ثلاثة أنواع يُشرَع للعبد في دعائه أن يتوسل بها، وقد دلت الأدلة على مشروعيتها دون غيرها، وهي: التوسل بأسماء الله وصفاته، والتوسل بالأعمال الصالحة، والتوسل بدعاء رجل صالح حي.

---

(١) سورة يوسف: (٨٧).

(٢) خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٢٤٣-٢٤٤ مخطوط).

المبحث الثالث عشر
مَسْأَلَةُ سِمَاعِ الْمَوْتَى

مسألة سماع الموتى شبهةٌ مِن شُبَهِ المشركين والمنتسبين للإسلام المغررين، التي بنوا عليها مذهبهم في دعاء غير الله تعالى، والاستغاثة بالأموات واستعانتهم والاستمداد منهم، ولذا كان هدم طاغوتهم وكسر صَنمهم في ذلك مِن بَالِغِ ما يكون في الأهمية، ومن هذا المنطلق وإثباتِ ما أثبته الله تعالى في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ تكلَّمَ أهلُ السُّنة في هذه المسألة، ووضحوا فيها معتقدهم المبني على الوحي المترل من عند الله تعالى.

وسأبين في هذا المبحث عقيدة أهل السنة أولاً تجاه هذه المسألة الخطيرة، ثم أردفه بذكر موقف الشيخ السندي رحمه الله تعالى من ذلك وجهوده في تقرير عقيدتهم.

ولكني قبل ذلك أريد أن أجلّي في هذا المقام أن المراد من عقد هذا المبحث هو إبطال عقائد القبورية في سماع الموتى لنداء المستغيثين بهم والمستنجدين، ودعائهم منهم لكشف الكربات وقضاء الحوائج، وليس مقصودي في هذا المقام هو إثبات أصل السماع للموتى أو نفيه، إذ ذاك أمر اختلف فيه العلماء قديماً وحديثاً، كسماع النبي ﷺ سلام المسلِّمِ عليه، وما أشبه ذلك، إذ الأول هو الأنسب لعنوان الفصل ومضمونه.

وتفصيل ذلك فيما يلي من المقامات:

المقام الأول: أقوال المخالفين في جعلهم مسألة سماع الموتى مدخلاً لشركياتهم التي يقعون فيها:

سبقت الإشارة إلى أن أهل البدعة والمشركين قد اتخذوا هذه المسألة تُرساً لتبرير عقائدهم الشركية، وجوَّزوا بإثباتهم السماع المطلق للأموات عبادتَهم والتقرب إليهم بأنواع من القرُبات، كالاستغاثة بهم والدعاء منهم وطلب العون والمدد، وكشف الضر وقضاء الحوائج، وما إلى ذلك.

وفي هذا المقام سأورد من أقوالهم ما يُثبت عنهم ذلك، لكي تتجلى للقارئ الكريم حقيقة مقصودهم من وراء إثباتهم لها، ويقفَ على كيفية استدلالهم بها على ما يرتكبونه من الشركيات بصرف أنواع من العبادات لغير الله تعالى.

فهذا ابن جرجيس[1] يدّعي سماع الموتى لنداء المنادين وكلام المستشفعين بهم، ويجهِّل العلماء الذين لا يقولون بقوله، فيقول: (وكان بعض مَن يدَّعي العِلم في زعمه، يقول: كيف يعلم الأنبياء والأولياء بمن يستشفع بهم ويناديهم؟! فقلت لهم: هم مكشوف لهم في الدنيا، وهم على ما هم عليه بعد موتهم)[2].

ويقول كذلك: (إن الأنبياء والأولياء المنقولين بسيف المجاهدة لله، كالشهداء الوارد فيهم النص القرآني في حياتهم الحقيقة، كيف يُستغرَب طلب التسبب منهم والتشفع؟! .. فهل إذا عامل أحد هؤلاء الذين هذا حالهم معاملة الأحياء يلام على ذلك، أو يعاب، أو يؤثم؟! .. مع اعتقاده أن الفعل لله وحده خلقاً وإيجاداً لا شريك له، وأنه يكون من أهل القبور من الأنبياء والأولياء تَسَبُّباً وكَسْباً)[3].

---

(١) هو داود بن سليمان البغدادي النقشبندي الخالديّ الشافعيّ، ابن جرجيس؛ متفقه متأدب؛ ولد سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف؛ قام برحلات إلى الحجاز والشام، وصنف كتبا صغيرة، منها «أشد الجهاد في إبطال دعوى الاجتهاد»، ورد عليه الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بكتاب سماه «منهاج التأسيس»، وله أيضاً: «بيان الدين القيم في تبرئة ابن تيمية وابن القيم»، وغير ذلك، قال العزاوي: اشتهر برده على أبي الثناء الألوسي، وراجت سوقه مدة ولكن مؤلفاته لم تقو على الانتصار. توفي عام تسع وتسعين ومائتين وألف. انظر: الأعلام: للزركلي: (٢/٣٣٢).

(٢) المنحة الوهبية: لابن جرجيس: (ص١٥) نقلاً عن دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: لعبد العزيز العبد اللطيف: (ص٣٥٠).

(٣) المنحة الوهبية: لابن جرجيس: (ص٢٥) نقلاً عن دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: لعبد العزيز العبد اللطيف: (ص٣٥١).

ثم يقول: (فالأحاديث الواردة في الطلب من الموتى، وأجمع عليها العلماء مبني أمرها على هذا الأصل ..)[1].

وهذا ما يُظهِره عنهم الشيخ الألباني رحمه الله تعالى بقوله: (وإنما الغرض بيان ارتباط هذه المسألة –سماع الموتى- بنوعٍ من أنواع الشِّرك، وأنَّ القضاء عليه يكون بتحقيق أنَّ الموتى لا يسمعون؛ فإني أعلم علم اليقين أنَّ في المستغيثين بالأولياء والصَّالحين من لم يَقُمْ في نفوسهم ما تَقَدَّم بيانه من الضَّلال الأكبر، ولكنَّهم لما كانوا يعتقدون أنَّهم يسمعون كالأحياء، وكان من المسلَّم لديهم مناداتهم والاستغاثة بهم في حياتهم، استجازوا ذلك بهم بعد موتهم!)[2].

بل إنهم يرون تبديع من لم يعتقد بمثل اعتقادهم وخروجه عن السنة، بل ولحوقه بالكفار، فيقول قائلهم بعد أن ذكر أحوالاً للموتى من سماعهم الأحياء ومعرفتهم بهم وغير ذلك، قال: (ومن لم يعتقد ذلك فقد ترك من واجب الإيمان شيئاً يجعله من المبتدعين الخارجين عن سُنَّةِ سَيِّدِ المرْسَلين ﷺ وعليهم أجمعين، ويلحقه أيضاً من بعض الوجوه بالكفار المنكرين!! ..)[3].

فتبين أن المخالفين يحاولون تقرير مسألة السماع للأموات، وهم قصدهم وراء ذلك هو أن يتوصلوا إلى القول بجواز الاستغاثة بهم في الكربات والمُلِمّات والمُهِمّات، كما قصدوا بها تبديع غيرهم ممن لم يقل بقولهم وتجهيلَهم، والله وحده المستعان.

---

(١) المنحة الوهبية: لابن جرجيس: (ص٢٥) نقلاً عن دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: لعبد العزيز العبد اللطيف: (ص٣٥١).

(٢) تحقيق رسالة الآلوسي: "الآيات البينات في عدم سماع الأموات": للألباني: (ص٣٠-٣١).

(٣) سعادة الدارين في الرد على الفرقتين الوهابية ومقلِّدة الظاهرية: لإبراهيم السمنودي: (٢٥٣/١).

المقام الثاني: معتقد أهل السنة في مسألة سماع الموتى وردهم على المخالفين:

يرى أهل السنة والجماعة أن الأموات لا يسمعون دعاء الأحياء منهم، ومناداتهم، ولا يستجيبون لهم، لأن الله تعالى نفى عن الأموات سماعَ مَن يدعوهم من الأحياء، وقد وردت لهم أقوال عديدة في بيان ذلك.

يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن حسن[١] رحمه الله في بيان خطورة الاعتقاد بسماع الموتى وحكم ذلك: (ومن قال أنَّ الميِّتَ يَسمع، ويستجيب، فقد كذَبَ على الله، وكذَّبَ بالصِّدْق إذ جاءه ..)[٢].

وقد استدلَّ على ذلك بقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾[٣].

وعلى عدم سماع الموتى استدل الإمام ابن الهُمام الحنفي[٤] رحمه الله في كتابه

---

(١) هو الشيخ عبد الرحمن بن حسن ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ ولد سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف من الهجرة في الدرعية، قرأ على جده محمد بن عبد الوهاب، وعلى الشيخ حمد بن ناصر بن معمر، وآخرين؛ من أشهر تلامذته ابنه عبد اللطيف، وكثير من أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ من مصنفاته: «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد»، و«قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين» وغير ذلك؛ وكان مدرساً وواعظاً في مجالس فيصل بن تركي؛ توفي سنة خمس وثمانين ومائتين وألف بعد عمر طويل. انظر: محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه: لمسعود الندوي: (ص٧٨-٨٧) ؛ ومشاهير علماء نجد: لعبد الرحمن بن عبد اللطيف: (ص٧٨).

(٢) كما في دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: عبد العزيز العبد اللطيف: (ص٣٦٠).

(٣) سورة الأحقاف: (٥).

(٤) هو: محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد، المعروف بابن الهمام الحنفي، ولد سنة تسعين وسبع مائة؛ قرأ على الزي السكندري، وعلى يحيى العجيسي، وآخرين؛ وأخذ عنه ابن أمير حاج، و=

«فتح القدير» بعد ذكره قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾[1]، وقولَه سبحانه: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾[2] قال: (إنهما يفيدان تحقيق عدم سماعهم؛ فإنه تعالى شَبَّهَ الكفار بالموتى لإفادة تعذُّر سماعهم، وهو فرع عدم سماع الموتى)[3].

وقال التفتازاني[4] رحمه الله: (وأما قوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾[5] فتمثيل لحال الكفرة بحال الموتى، ولا نزاع في أنَّ الميِّتَ لا يَسمع)[6].

فتبين بذلك أن الميت لا يسمع أصوات من يناديه من الأحياء على وجه الأرض، وببطلان ذلك بطل القول بجواز الاستغاثة بهم، وطلبِهم للمناصرة والنجدة ونحو ذلك، وإنما هو الله تعالى وحده الذي يسمع دعوة الداعي، ويسمع مَن بَعُد كما يسمع من قَرُب، لا تخفى عليه خافية.

=سيف الدين بن عمر، وغيرهما؛ من كتبه: «فتح القدير» في شرح الهداية، و«التحرير» في أصول الفقه، وغيرهما؛ توفي بالقاهرة سنة إحدى وستين وثمان مائة. انظر: الضوء اللامع: للسخاوي: (١٢٧/٨ برقم ٣٠١) ؛ وفوائد البهية في تراجم الحنفية: لعبد الحي اللكهنوي: (ص١٨٠).

(١) سورة النمل: (٨٠).

(٢) سورة فاطر: (٢٢).

(٣) شرح فتح القدير: لابن الهمام: (١٠٦/٢).

(٤) التفتازاني هو: سعد الدين، مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني؛ من أئمة العربية والبيان والمنطق، ولد بتفتازان من بلاد خراسان سنة اثنتي عشر وسبع مائة، وأقام بسرخس؛ أخذ عن القطب والعضد؛ من مؤلفاته كتاب «التلويح على التوضيح»، وله «حاشية على شرح العضد» لمختصر ابن الحاجب؛ توفي سنة ثلاث وتسعين وسبع مائة. انظر: الأعلام: للزركلي: (٢١٩/٧) ؛ ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة: (٨٤٩/٣).

(٥) سورة فاطر: (٢٢).

(٦) شرح المقاصد: للتفتازاني: (١١٦/٥).

- **تقرير الشيخ بديع الدين السندي لعقيدة أهل السنة فيما يتعلق بهذا المبحث:**

تقدم أن مسألة سماع الموتى من المسائل التي طالما اختلف فيها المخالفون، وأن كثيراً من اختلافهم في هذه المسألة لغرض في أنفسهم، وهو الوصول إلى ما هو من صريح الشرك بالله عز وجل، وذلك أن إثباتهم لسماع الموتى مطلقاً من السلالم التي بها يثبتون الحياة للأموات على منوال الدنيا، وإذا أثبتوا لهم الحياة على هذا الوجه أخذهم الشيطان إلى دَرْكٍ أسفلَ منه، وهو مدّ اليد أمامهم لطلب العون والمدد منهم، والاستغاثة بهم، وترهيب الناس منهم إنْ لم يبذلوا لهم من أنواع القُرُبات والعبادات، وما إلى ذلك من تدجيلهم وتدليسهم.

ولذلك اهتم الشيخ بتخذيلهم وتخجيلهم ببيان هذه المسألة العظيمة التي بسببها وقع كثير من الناس في حيرة واضطراب، فسلكوا بها إما مسلك الشركيات، أو وقعوا في شك من دينهم وارتياب، وسأوضح جهوده في تقرير عقيدة أهل السنة في ذلك فيما يلي من النقاط:

أولاً_ تقريره أن الأموات لا يسمعون الأحياء إلا بتبليغ من الله:

يقرر الشيخ السندي رحمه الله أن الأموات ليس في قدرتهم سماع الأحياء، وإنما الله تعالى يُسمع منهم من يشاء، يقول رحمه الله: (إن الله تعالى لا يخفى عليه شيء، هو وحده يُبصر كلَّ أحدٍ ويَسمعه، فلا يبعد عنه شيء، وله أن يخاطب مَن يشاء، لكنه ليس لنا أن ننادي الغائب، ولا نقدر على إيصال أصواتنا إليهم، وكذلك مَن يبلغ الله تعالى إليه الأصوات فليس في قدرته الذاتية أن يسمعَ أو يجيب، بل إنما هو بقدرة الله أن يبلغه إليهم.

وعليه فإن الاعتقاد أنهم يسمعون كل شيء من إشراكهم بالله عز وجل، لأن سماع كل شيء إنما هو من شأنه المبارك وحده لا شريك له.

وكذلك لو اعتقد الشخص أننا نحن الذين نوصِّل إليهم أصواتَنا، فإنه من الاعتقاد أن لهم الألوهية، وهو من إشراكهم بالله تعالى، وكلاهما باطل)[1].

وهذا التقرير يدل أن الأموات لا يسمعون الأحياء بقدرتهم الذاتية، وليس من وُسعهم أن يسمعوا، لأن الله وحده هو القادر على سماع الأصوات من الغيب، وسَمْعِ كل شيء، ولذلك اعتقاد ذلك في أهل القبور من الشرك بالله عز وجل، لأنه نداء من لا يسمع وإسماعُه، وليس ذلك إلا بيد الله تعالى وقدرته.

فاعتقاد سماع الأموات لدعاء الأحياء شرك من ناحيتين:

- الأولى: يلزم منه الاعتقاد بأن الأموات يسمعون من الغيب، وليس ذلك إلا من صفة الواحد القهار الذي يسمع كل شيء، لا تخفى عليه خافية.
- الثانية: الشرك في قدرة الله تعالى؛ وذلك أن إسماع من لا يقدر على السمع إنما هو من قدرة الله جل شأنه، فاعتقاد ذلك في غيره من الشرك معه سبحانه في قدرته.

- **ثانياً_ رده على بعض شبه المخالفين في ذلك:**

من عادة أهل البدعة وزائغي القلوب أنهم يتركون النصوص المحكمة التي أمر الله بالرجوع إليها عند الاختلاف، ويتّبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى ذلك في محكم كتابه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾[2].

---

(١) خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٢٠٢ مخطوط).

(٢) سورة آل عمران: (٧).

ومن أمثلة ما ذكر الله عنهم في هذا المقام هو ما سيأتي من شبهتهم في مسألة سماع الموتى، فقد تركوا النصوص الواضحة الجلية التي أحكم الله تعالى فيها البيان عن ذلك، ولجؤوا إلى شُبَهٍ تافهة لا وزن لها في ميزان العلم والتحقيق.

فمنها ما ذكره الشيخ من قولهم: أنه ورد في القرآن الكريم في عدة مقامات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾(1)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾(2) فكذلك لا حرج لو قلنا منادين: يا رسول الله!.. (3).

وهذا الأمر من أهل البدعة هو ما قدَّمْت عنهم أنهم يبنون على هذه المسألة التي هي مسألة سماع الموتى عقائد أخرى شركية، وهذا الاستدلال منهم مثال بيِّنٌ من الأمثلة على ذلك.

وقد رد الشيخ السندي على شبهتهم هذه بعدة أجوبة، وبَيَّن بطلان استدلالهم بمخاطبة الله تعالى لنبيه ورسوله ﷺ على مخاطبة الأموات وإسماعهم الكلام، فمن هذه الأجوبة:

يقول رحمه الله تعالى: (أقول **أولاً** –وبالله التوفيق-: لله تعالى أن يخاطب ما يشاء، بيده أن يبصر الأعمى، ويُسمع الأصَم، ويُنطق الأبْكَم، ويُسمع الموتى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ ﴾(4)، وقد بيَّن الله تعالى لنا أبيَنَ بيان حيث قال: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ﴾(5).

---

(1) سورة الأنفال: (٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠) ؛ وسورة التوبة: (٧٣) ؛ وغير ذلك.

(2) سورة المائدة: (٤١ ، ٦٧).

(3) وقد واجهتُ هذه الشبهة شخصياً من قِبل بعض العوام عدة مرات، مما يدل على انتشارها بينهم بسبب تضليل علماء السوء لهم.

(4) سورة فاطر: (٢٢).

(5) سورة فاطر: (١٤).

ثانياً: إن الله تعالى لم يخاطب أنبياءه فحسب، بل خاطب أشياء أخرى؛ فقال مثلاً: ﴿ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾[1]، وقال: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ ﴾[2]، وقال: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ ﴾[3].

بل خاطب الانسانية كلَّها في عدة مقامات، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾[4]، و: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[5]، بل وقد خاطب الكفار فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[6]، و: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾[7] عدة مرات، بل وقد خاطب إبليس، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾[8].

فهل تنادوهم أنتم كذلك؟!.. وتجعلون من أورادكم: يا إبليس.. يا إبليس؟! ...

فقد تقدم من قوله تعالى فيما سبق: ﴿ وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ ﴾[9]، وقوله سبحانه: ﴿ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[10]، وما ذكره من قول

---

(١) سورة هود: (٤٤).

(٢) سورة آل عمران: (٤٣).

(٣) سورة الأحزاب: (٣٠).

(٤) سورة البقرة: (١٦٨).

(٥) سورة البقرة: (١٠٤).

(٦) سورة التحريم: (٧).

(٧) سورة آل عمران: (٧٠ ، ٧١) ، وسورة النساء: (١٧١) ، وسورة المائدة: (١٥).

(٨) سورة ص: (٧٥).

(٩) سورة النساء: (١١٧).

(١٠) سورة سبأ: (٤١).

إبراهيم ﷺ : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ ﴾[1] وهذا يعني أن دعاءهم وعبادتهم لأي شيء كان –سوى الله– إنما هو عبادة الشيطان في الحقيقة ...

ثالثاً: خطاب الله تعالى لجميع الأشياء يكون باعتبار حكمه وأمره، والكل محكومه تحت أمره، فهل خطابكم أيضاً من هذا النوع؟!

وهل تأمر الرسول حين تناديه بـــ"يا رسول الله"؟!.. معاذ الله من ذلك، إذاً فقياسكم هذا غير صحيح، لأن فيه توهين الأنبياء والأولياء.

رابعاً: بل خطابكم خطاب مسألة وطلب، فهل خطاب الله تعالى –عياذاًبه من ذلك– من هذه الحيثية؟ لِم لا تقولون: أن قوله دعاء منه واستغاثة به حين يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ ؟!.. فكما أن قياسكم أنفسكم على الله من الغلط، فكذلك قياس الله تعالى على المخلوق من الباطل)[2].

إلى غير ذلك من الأوجه التي رد بها الشيخ السندي على شبهتهم هذه وأبطلها، وقد اكتفيت بذكر ما أوردتُ منها في هذا المقام طلباً للاختصار، ولوضوح بطلان هذه الشبهة عند العامة والخاصة إلا من أعمى الله بصيرته فتعلق قلبه بها.

وخلاصة المبحث أن أهل السنة والجماعة يرون أن الأموات ليس بمقدورهم أن يسمعوا دعاء الأحياء، أو أن يستجيبوا لهم، لأنهم أموات غير أحياء، وما يشعرون أيان يُبعثون.

---

(١) سورة مريم: (٤٤).

(٢) خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٢٠٢ مخطوط).

المبحث الرابع عشر
الرَّجَاءُ، والخَوْفُ والخَشْيَةَ

العبودية لله تعالى تتطلب الرجاء مع الخوف والخشية، فإن العبد يخاف الله ويخشى عذابه، ويرجو كذلك رحمته وثوابه، فيجمع بين الأمرين، كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ ﴾(١) فإن الله تعالى قد جمعهما في هذه الآية المباركة، فأمرَنا بالفرار إليه جل شأنه، وهو الهروب من عذاب الله وعقابه إلى رحمته، قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: (يقول تعالى ذكره: فاهربوا أيها الناس من عقاب الله إلى رحمته بالإيمان به، واتباع أمره، والعمل بطاعته ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ يقول: إني لكم مِن الله نذيرٌ أنذركم عقابَه، وأخوِّفُكم عذابه الذي أحلَّه بهؤلاء الأُمَم الذين قصَّ عليكم قصَصهُم، والذي هو مُذِيقُهم في الآخرة. وقوله: ﴿ مُّبِينٞ ﴾ يقول: يبين لكم نذارته)(٢).

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله: (لما دعا العباد إلى النظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه، أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه، ظاهرًا وباطنًا ... وكل مَن خِفْتَ منه فررتَ منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه، يكون الفرار إليه. ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ أي: منذر لكم من عذاب الله، ومخوف بين النذارة.

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ ﴾(٣) هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه

---

(١) سورة الذاريات: (٥٠).

(٢) تفسير الطبري: (٢١/٥٤٩).

(٣) سورة الذاريات: (٥١).

أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله، من الأوثان، والأنداد والقبور، وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف، والرجاء والدعاء، والإنابة)[1].

فعُلم أن الخوف والرجاء للمؤمن كالجناحين للطائر، لا يُغني أحدهما عن الآخَر، وهذا الذي سار عليه السلف الصالح، فالخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف، فكل راج خائف، لأنه يخاف من فوات مرجوه، وكذلك كل خائف راج، لأن الخوف بلا رجاء يأس وقنوط.[2]

ولذا قال بعضهم: (الخوف والرجاء، كجناحي الطائر إذا استوَيا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقصَ أحدُهما وقع فيه النقص، وإذا ذَهباَ صار الطَّائِر في الموت)[3].

فجمعوا بين الخوف من ربهم وخشيته وبين رجاء رحمته، وسلكوا في ذلك مسلك من قال الله تعالى فيهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾ ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[5].

يقول الإمام ابن بطة[6]: (وأجمعت العلماء لا خلاف بينهم، أن الله عز وجل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: للسعدي: (ص٨١٢).

(٢) مدارج السالكين: لابن القيم: (٣٩/٢).

(٣) انظر: مدارج السالكين: لابن القيم: (٣٩٠/١).

(٤) سورة الإسراء: (٥٧).

(٥) سورة السجدة: (١٦).

(٦) هو عُبيد الله بن محمد بن محمد العُكبري، المعروف بابن بطة، وُلد سنة أربع وثلاث مائة، سمع عبد الله البغوي، ومحمد السّرَّاج، وغيرهما، ومن تلامذته الحسن بن شهاب، وأبو نُعيم الأصبهاني، وآخرون؛ من مصنفاته: «الإبانة الكبرى»، و«الإمام ضامن»، وغير ذلك؛ توفي سنة سبع وثمانين وثلاث مائة. انظر: المنهج الأحمد: لعبد الرحمن المقدسي: (٢٩١/٢) ؛ وسير أعلام النبلاء: للذهبي: (٥٢٩/١٦ برقم٣٨٩).

قد افترض على الخلقِ الخوفَ والرَّجاء، وأنه دعا عبادَه إليه بالرغبة والرَّهْبة)[١].

ثم إن هناك فرقاً بين الخوف والخشية، إذ الخشية أخص من الخوف، ففي «مدارج السالكين» للحافظ ابن القيم رحمه الله: (الخشية أخَصّ مِن الخوف؛ فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[٢] فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ: ﴿إِنِّيْ أَتْقَاكُمْ لِلهِ وَأَشَدُّكُمْ لَه خَشْيَةً﴾[٣] فالخوفُ: حركةٌ، والخشيةُ: انجِماعٌ وانقِباضٌ وسكون؛ فإنَّ الذي يرى العدوَّ والسَّيل ونحو ذلك له حالتان:

إحداهما: حركةٌ للهَرَب منه؛ وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقَراره في مكان لا يصل إليه فيه؛ وهي الخشية)[٤]

فتبين أن الخشية هي خوف مقرون بالمعرفة، وهي أخصُّ منه، لأنها للعلماء بالله تعالى، والخوف لعامة المؤمنين، (فصاحب الخوف يلتجئ إلى الْهَرَب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم؛ كمَثَل من لا علم له بالطب، ومَثَل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئ إلى الحمية والْهَرب، والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوِية والأدواء)[٥].

وعلى كل فإنه ينبغي لعبد الله (أن لا يخاف معه غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستغيث بسواه، ولا يرجو

---

(١) متن كتاب: الشرح والإبانة: لابن بَطَّة: (ص٣٦٤).

(٢) سورة فاطر: (٢٨).

(٣) رواه البخاري في صحيحه: (٢/٧ برقم ٥٠٦٣) كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح ؛ ومسلم في صحيحه: (١١٠٦/٢ برقم ٢٣٥٦) كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته.

(٤) مدارج السالكين: لابن القيم: (٣٨٦/١-٣٨٧).

(٥) المرجع نفسه: (٣٨٧/١).

إلا إياه، ومتى علّق قلبَه بغيره ورَجَاه وخافَه: وُكِل إليه وخُذِل من جهته، فمن خاف شيئاً غير اللّه سلّط عليه؛ ومن رجا شيئا سوى اللّه خُذل من جهته وحرِم خيره؛ هذه سنة اللّه في خلقه، ولن تجد لسنة اللّه تبديلا)[1].

وهذا لأن الخوف والرجاء كلاهما من أعظم العبادات لله تعالى، والعبادة -كما مر في مبحث تعريف العبادة- أصلها التذلل والخضوع، فمن فعل ذلك لله فعلها للمستحق لذلك، وارتفع به مقام العابد عنده، ومن صرفه لأحد غير الله فقد تذلل له وخضع له، ولم ينل بذلك رِفعةً عند المعبود الحق الذي هو الله، ولا عند معبوداته الباطلة وآلهته العاجزة، فلم يكن في مقدوره إلا الذلة والخِذْلان، وحرمان الخير، والقعود مذموماً مخذولاً.

---

(١) التفسير القيم للإمام ابن القيم: جمعه محمد أويس الندوي: (ص٥٩٤).

- **تقرير الشيخ بديع الدين السندي لعقيدة أهل السنة فيما يتعلق بهذا المبحث:**

قرر الشيخ السندي رحمه الله تعالى أن الله هو الذي ينبغي أن يُخافَ منه، وهو الذي يُخشىَ منه، وهو الذي يُرجى، ولا يجوز الشرك بالله تعالى في هذه العبادات، وتوضيح ذلك فيما يلي:

أولاً_ بيانه أن الرجاء والخوف متلازمان للتوحيد:

بين الشيخ السندي رحمه الله تعالى أن الرجاء والخوف متلازمان لتوحيد الله سبحانه، فكما أن رجاء الله تعالى والخوف منه وخشيته من الأمور التي تُحقِّقُ الإخلاص والتوحيد، فهي كذلك من آثار تحقيق التوحيد، فمن حقق التوحيد لَم يرجو إلا الله، و لم يَخَفْ ولَمْ يخشَ إلا منه.

فيقول الشيخ: (لِيُعْلَم أن التوحيد أصلٌ للأعمال الصالحة كلِّها، وفي مقابل ذلك فإن الشرك أصلُ كل شَرّ، ولذلك دَعا الأنبياء قبل كل شيء إلى التوحيد، وذمّوا الشرك)[1].

وقد ذكر الشيخ لذلك بعض الأمثلة، منها دعوة نبي الله صالح عليه السلام لقومه، حيث بدأ بالتوحيد قبل تخويفهم من الله سبحانه، يقول الشيخ رحمه الله:

(وكذلك ثمود قوم صالح عليه السلام كانوا طُغاةً، حيث كانوا مسيطرين على العيون ومجامع المياه، وما كانوا يتركون الفقراء ليشربوا منها أو يستفيدوا من مائها، بل استأثروا بها لأنفسهم، وهذا عدوان عظيم وظُلم، ولكن صالحاً عليه السلام دعا قومه الظالمَ الجاهل قبل كل شيء إلى التوحيد، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ

(١) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٩٠).

ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[1].

فرسول الله سيدنا صالح عليه السلام علّمَهُم بالتوحيد قبل أيّ شيء، ثم منعهم من السيئات الأخرى، فإنه كان نبيّاً لله تعالى، وكان يَعرف أنه لو جعل قومَه موحِّدين في بادئ الأمر لوقع خوف الله تعالى في قلوبهم مَوقِعَه، ولأمسكوا بسببه عن سائر السيئات)[2].

فعُلم أن الخوف من آثار تحقيق توحيد الله عز وجل ونتيجته؛ كما قال الشيخ نقلاً عن الإمام ابن رجب[3] رحمهما الله تعالى: (فمن تحقَّق بكلمة التوحيد قَلبُه، أخرجتْ منه كلَّ ما سِوى الله محبةً وتعظيماً وإجلالاً، ومهابةً وخشيةً، ورجاءً وتوكُّلاً ...)[4].

وقيّد الشيخ السندي هنا كلامَ ابن رجب رحمه الله هذا بقوله: (أي: ما خرج من هذه الأمور عن حدِّه الشرعي)[5] يعني يخرج من قلبه محبةُ غير الله تعالى وخوفه ورجاءه، وغير ذلك من أنواع العبادات القلبية، فلا يحب العبدُ أحداً من المخلوق كمحبة الله، ولا

---

(١) سورة الأعراف: (٧٣-٧٤).

(٢) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٩١-٩٢).

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن رجب، زين الدين، المحدث الحافظ؛ ولد ببغداد ست وسبع مائة، وقدم مع والده إلى دمشق، وسمع معه من محمد بن إسماعيل ابن الخباز، وإبراهيم بن داود، وغيرهما؛ صنف «شرح الترمذي»، و«ذيل طبقات الحنابلة»، وله جزء من شرح البخاري، وغير ذلك؛ مات سنة خمس وتسعين وسبع مائة. انظر: الدرر الكامنة: لابن حجر: (٣٢١/٢ برقم٢٢٧٦) ؛ والبدر الطالع: للشوكاني: (٢٢٨/١ برقم٢٢٧).

(٤) جامع العلوم والحكم: لابن رجب: (٤١٧/٢ رقم الحديث: ٤٢).

(٥) انظر: توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٥٢).

يخافه كمخافة الله، ولا يرجوه كما يرجو من الله، وبالتالي فلا يقدِّم طاعةَ أحدٍ على طاعة ربه، ولايعصيه في أمره.

وهذا بخلاف المشرك الذي يشرك مع الله تعالى في خوفه ورجائه؛ فتراه جريئاً على المعاصي واقتراف الذنوب، كما بين الشيخ السندي رحمه الله تعالى هذا الأمر في موضع آخرَ، فقال: (لِما أن الموحِّد يخاف دائماً من الله تعالى فلا يجترئ على المعصية كالمشرك، فإن المشرك رجاءه من المرشِدين والأولياء، والطواغيت والمزارات، ولذا فإنه لا يخاف من الله تعالى)[1].

فهذا مما لا شك فيه أن العبد كُلَّما قوِيَ إيمانه وتوحيده كلما ازداد خوفاً من الرب جل وعلا، وكلما كان ضعيفاً في الاعتقاد والتوحيد كلما كان أوقعَ في الذنوب والمعاصي.

ويتأكد هذا بما ذكره الشيخ رحمه الله من مثال واقعي حصَلَ في عهدِ الرّسول ﷺ ، وهو أنه: ﴿كانَ رجلٌ يقالُ له: مرثد[2]، يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكانت امرأة بمكة يقال لها: عِنَاق[3]، وكانت صديقة له، وإنه وجد رجلا من أسارى مكة يحمله، قال: فجئتُ حتى انتهيتُ إلى ظِلِّ حائطٍ مِن حَوائِطِ مكّةَ في لَيلةٍ مُقْمِرة، فجاءت عناق، فأبْصرَتْ سَواد ظلٍّ تحت الحائط، فلما انتهتْ إليَّ عرَفَتْني فقالتْ: مرثد؟

(١) انظر: توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٧٨).

(٢) هو: مَرثد بن أبي مرثد الغنوى، الصحابى ابن الصحابى، واسم أبي مرثد: كنار بن الحصين، شهدا بدرًا مع النبى ﷺ، واستشهد مرثد فى غزوة الرجيع مع عاصم بن ثابت فى صفر سنة ثلاث من الهجرة، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أوس بن الصامت، وكان يحمل الأسارى من مكة إلى المدينة لشدته وقوته. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: للنووي: (٨٦/٢ برقم١٢٤).

(٣) عِناق هي امرأة مشركة، كانت خليلة مرثد بن أبي مرثد ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام، وهي امرأة مسكينة من قريش، وكانت ذات حظ من الجمال. لباب التأويل في معاني التنزيل: للخازن: (١٥٢/١) ؛ وتفسير ابن أبي حاتم: (٣٩٨/٢).

فقلتُ: مرثد. فقالت: مرحباً وأهلاً، هَلُمَّ فبِتْ عندنا اللَّيلة. قلتُ: يا عناق! حرَّم الله الزِّنا. قالت: يا أهلَ الخيام هذا الرَّجل يحمل أسراكم..!

قال: فتبعني ثمانيةٌ، وسلكتُ الخَنْدَمة[1] فانتهيتُ إلى غارٍ أو كهف، فدخلتُ فجاؤا حتى قاموا على رأسِيْ، فبالوا، وظلَّ بولهم على رأسي، ونحَّاهم الله عنِّي، ثم رجعوا ورجعتُ إلى صاحبي، فحملْتُه حتى قدِمْتُ المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله..! أنكح عناقاً؟ فأمسَك، فلم يرد عليَّ شيئاً حتى نزلتْ: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾[2] فَلَا تنكحْهَا ﴾[3]

قال الشيخ رحمه الله بعد إيراده لهذه القصة الغريبة: (استفيدت من هذا الحديث المبارك أمور عظيمة النفع) ثم شرع في ذكر هذه الأمور، فقال في الثاني منها: (المقام مقام اعتبار، وهو في امتناع مرثد قائلاً: "حرَّم الله الزنا" مع ما كان له في زمان الجاهلية من العلاقة غير الشرعية مع عناق، ومع محبته لها —والتي يُبَرْهِن عليها استئذانه من رسول الله ﷺ في أمر النكاح بها– ، وكذلك وجود الخلوة وظلمة الليل، حالَ كون المرأة تُراوِدُه عن نفسه، وتدعوه إليها للفاحشة..! فإن هذا هو التوحيد الحقيقي؛ أنْ يقعَ خوف الله تعالى في نفس العبد حتى أنه لا يجترئ ولا يتشجع على الفاحشة، مع وجود الرغبة، والفُتُوَّة، وتوفر الأسباب كلها).

إلى أن قال: (وهذا كله كان نتيجة التوحيد وبركته بأن قطع علاقاته القديمة مع عناق، وذلك لأنها كانت مشركة، وهو موحِّد)[4].

---

(١) خَندمة: جبل بمكة. معجم البلدان: للحموي: (٣٩٢/٢).

(٢) سورة النور: (٣).

(٣) رواه أبو داود في سننه: (ص٣٥٦ برقم٢٠٥١) كتاب النكاح، باب قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ ؛ والترمذي في جامعه: كتاب التفسير، باب ومن سورة النور (ص٧١٥ برقم ٣١٧٧)؛ وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٤) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص١٠٤-١٠٥).

فاتضح أن الخوف كالرجاء أمر ملازم للتوحيد، لا يفترقان، فإن العبد الموحِّد لله تعالى في عبادته يبذل له أنواع العبودية كلها، ويتذلل له تمام الذُّلّ، ولا يخضع بجسده ولا بقلبه لأحد سواه، بل عباداته القلبية والقولية والجسدية كلها تكون لله الواحد الأحد.

وهذا التلازم لهذه العبادات العظيمة للتوحيد يدل على عِظمها وفضلها وشرفها، كما يدل على أن الشرك في شيء منها من أعظم الشرك مع الله تعالى وأقبحه، ولن يرضاه الله تعالى، فإنه هو الغني الحميد.

ثانياً_ كيف يُرجى غير الله وهو الخالق الرازق المنعِم!

مما يتعلق بباب الرَّجاء والخوف أنّ العبد لا يرجو إلا ممن هو متصف بأنه الخالق الرازق المنعم، إذ كيف يرجو العبد من لا يخلق ولا يرزق ولا ينعم! والشيخ السندي رحمه الله قد بيّن أن الله سبحانه وتعالى تفضَّل على الانسان بعظيم آلائه ونعمه، فقد خلقه تعالى من العدم ولم يك شيئاً مذكوراً، خلقه في أحسنِ تقويم، وهيَّأَ أسبابَ الرزق، فكيف يليق به أن يَترك خالقَه ورازقه والمنعِمَ عليه وينساه، ويرجو من غيره مَن ليس بخالق له ولا رازق، ولا له عليه من إحسان ولا إنعام، إن ذلك لأمر عجاب.

يقول الشيخ رحمه الله في بيان هذا الأمر وتوضيحه: (... كيف يرضى الله تعالى لمخلوقه الذي أوجده من العدم، وأعطاه البهجة والقوة والطاقة، ووهبه العقل والرشد، ورزقه بأن وهَب له أسباب الرزق، أن يصير عابداً لغيره، وذاكراً له!..

كلا؛ فإن الشرك كُفرانٌ لنِعَم الله تعالى، وذلك بوصل الرجاءات بباب غيره ونسيانِ نِعَمه التي لا تُحصى)[1].

(١) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٨٣).

فعُلم أن الله تعالى هو الذي ينبغي أن يُرجى، ولا يُرجى غيره، لأنه هو المنعم الواهب الخالق سبحانه جلّ جلاله، ومِن شُكره إخلاص جميع العبادات له وحده، والتي منها الخوف والرجاء.

كما تبين من خلال هذه النقول عن الشيخ رحمه الله توسطه بين الرجاء والخوف، وأن كلا منهما عنده ذات أهمية في مكانه، وأنه لا غنى لنا عن أحدهما بالآخر، فلم يغلِّب جانب الخوف على الرجاء، ولا جانب الرجاء على الخوف، وبذلك تظهر وسطيته وموافقته للسلف رحمه الله تعالى في الجمع بينهما.